

قراءة في رؤية المستشرقين للمدينة الإسلامية وعمارته

(بحث مستل)

م. محمد عبد مرزوك

باشراف: أ.م.د. عبد الرزاق علي الأنباري

ملخص البحث

من الأهمية بمكان لمعظم الباحثين في مختلف المجالات اليوم الاطلاع على وجه النظر الاستشراقية لئلا تتوقع نتائجهم في دائرة ضيقة ينكفون بها على آرائهم ومن يسير بركبها، ووفق هذه الرؤية فقد وقفت هذه الدراسة على آراء المستشرقين في المدينة العربية الإسلامية وآلية تطورها في دراسة موازنة تحليلية مع ما جاء بالموارد العربية في هذا المجال لبيان للقارئ ماهية الرؤيتين ويقف على حيثياتهما .

وبما ان المدن مادة الحضارة وسنامها او هي ذاتها الحضارة، فقد كان التبادل الحضاري حاضرا بين المدن العربية الإسلامية داخل الوطن العربي وكذلك بينها وبين من جاورها من المدن في آلية اختلف المستشرقون في تفسيرها وان جنحت في معظم مفاصلها باتجاه غمط حق العرب المسلمين فيما أبدعوا به وحاولوا إلصاق البداوة كسبب لتخلف العرب باعتقادهم وقالوا انه لا ينبغي إقران اسم العرب مع الحضارة والعمران لأنهم أصحاب أفكار باهتة وبدائية.

على أن هذه الآراء دحضتها الآلية التي تحرك بها العرب المسلمون في كل مجالات الحضارة وتقدمهم في ذلك ركب الانسانية بفترة وجيزة نسبيا إذ تدل فترة التفجر التمدني بين القرن السابع إلى الحادي عشر الميلادي والتي عاشتها مدن المسلمين تدل على هذا التحرك والنشاط بوضوح وباعتراف المستشرقين أنفسهم، ولما كان المستشرقون قد اسقطوا رؤاهم في مدنهم على المدينة الإسلامية باعتبارهما نظام حضري ينبغي أن يخضع لنفس الآلية في التقييم وقبل ان تلج الدراسة في آراء المستشرقين بالمدينة الإسلامية على وفق هذا المعيار رأت أن تقف على المدينة الأوربية في نظرة خاطفة تبين فيها أهم مراحل تطورها إذ خلصت إلى أن آخر ما وصلت إليه تلك المدينة من تطور هي مرحلة (المدينة الأم - Metropole) وان هذه المرحلة-المدينة الأم- والتي نعت بها المستشرقون مدنهم الحديثة وتبحوا في تطورها كانت المدينة الإسلامية قد عاشتها في بواكير نشأتها وذلك لكثرة توابعها من المدن.

لقد حاول قسم كبير من المستشرقين النظر للمدينة العربية الإسلامية على وفق ما جاءت به نظريات علمائهم واختصاصييهم في ذلك كنظرية ماكس وبيبر الشهيرة ذات الخصائص الخمسة والتي تسمى بنظرية النموذج المثالي او من سار مسيره كـ (جرونباوم) و(بيرنيه) وغيرهم وهذا بحد ذاته إسقاط مجحف لان المستشرقين لم

يدركوا خصوصية المدينة الإسلامية لارتباطها قويا بقواعد الشريعة، على ان اختلاف اراء قسم منهم في هذه النظرة أشد لبعض الانصاف في رؤية المدينة الإسلامية من مثل نظرة (البرت حوراني) و(ريموند) وغيرهم، ومنهم من نظر لها وفق مؤسساتها الاجتماعية وكيفية السيطرة عليها من خلال ربط كافة شرائح المجتمع بنظام أساسه سلم التدرج في التركيبة الاجتماعية لذلك المجتمع. على أن قسما منهم كان أبصر في نصرته فجعل ديناميكية الشريعة الإسلامية الأساس في تلك النظرة وان العمران مرتبط بتطور مستمر أساسه مستمد من وحي الشريعة التي تملئ عليه تلك الديناميكية في التطور.

ولقد خلصت الدراسة بمجمل ما أتت عليه من آراء ان نظرة المستشرقين انقسمت ما بين غمط وإجفاف تشوبه مقاصد مبيتة للانتقاص من مدينة المسلمين وحضارتهم وبين إنصاف يشوبه جهل بالسبب الحقيقي الذي حمل مدينة المسلمين وحضارتهم وأرقاها مراقي النجاح بوقت قياسي، والنضرتان إن خيرنا بينهما فان أحلاهما مر وأحسنهما مشوه ولذلك كان لهذه الدراسة رأي في ذلك تنقل به القاري الى مضانه داخل صفحات الدراسة ليبقى ما خفي في هذه الخلاصة دافع القاريء للاطلاع على الدراسة ولئلا نذهب بحلاوة النتائج في بواكيره .
والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه اجمعين .

أ- التلاقح الحضاري بين العرب المسلمين والبلاد المفتوحة

ما كاد العرب أن يفتحوا الشام والعراق ومصر حتى شرعوا مبكرا وتحت ضغط الحاجة العسكرية في بناء المدن، إذ وضعوا أسس أربع مدن كانت أمصارهم التي ينطلقون منها لديمومة هذا الفتح ثم استمر البناء والفتح للمدن متزامنا ومستمرًا في عصور الدولة اللاحقة .

فماذا صنع المسلمون بدخولهم المدن والقصبات المفتوحة ؟ هل خربوها وأزالوا معالمها ؟ أم جعلوها هكذا فريسة بعد أن غنموا ما يمكنهم الإفادة منه ماديا واقتبسوا من فنها ما بنوا عليه أمجادهم التي يتبجحون بها ؟ أم تركوها جانبا وبنوا مدنا وقتية ارتبطت بأفكارهم الجديدة تارة او تخليدا لأمرائهم وزعمائهم وخلفائهم تارة أخرى ، فاندurst هذه المدن بعد زوال سبب البناء الذي أنشأت من أجله كوفاة بناتها أو انتقالهم إلى حواضر أخرى أو تغيير توجهات زعمائها ومجيء زعماء بتوجهات أخرى جديدة. وعلى هذا صارت بلدانهم مليئة بهياكل مدن مية لتبقى شاهدا على سطحية حضارتهم وطغيان حكامهم وبلادة أفكارهم!!؟ أو أن تلك المدن ما هي إلا تقليد للمدن الإغريقية واليونانية والرومانية والساسانية بعد أن ساهمت الفتوحات في تدمير التمدن الأوربي والمدينة الأوربية!؟.

أم أن العرب المسلمين لم يخربوا المدن أو يشوهوها بإضافاتهم بل أنهم وجدوا أنقاض مدن فطوروها وبنوا عمائرهم عليها؟ وأن العرب كانوا في فطرتهم ميالين للمدنية وأن شواهد القصور في مناطق استقرارهم في اليمن كقصر غمدان أو سدودهم كمأرب ومدنهم كالبتراء . كانت دليل حبهم للعمران والمدنية. وأنهم عندما مد لهم الإسلام يده تفاعلوا معه وصاروا بفترة وجيزة وقياسية من أكثر – إمبراطوريات العالم – حضارة وأن تلك الحضارة استطارت معهم حيث تقدموا بفتوحاتهم وأينما حلوا أو ارتحلوا.

ولعل هذه التساؤلات ما كان لها أن تطرح لو لم يكن لها صدى في واقع كتابات من تحامل على المدينة العربية الإسلامية من المستشرقين أو من ظن أنه أنصفها وكانت طروحاته بفهم مرتبك لا يتناسب مع فهم وإدراك أهل الدار من الآثاريين أو المؤرخين العرب على أن هؤلاء المستشرقين قد سخروا جهودهم وآثارهم وباحثيهم للإطلاع على كنه مدن المسلمين وأسرار تطورها فهم أعرف في أحيان كثيرة من أهل المدن الإسلامية نفسها بمدنهم وقد اكتشفوا ووثقوا وفهرسوا فخدموا بحسن نوايا أو سوءها قصدوا ذلك أم لم يكونوا قاصدين ، خدموا في أحيان كثيرة تراث المسلمين واكتشفوا ما خبا تحت التراب أو فوقه من أسرار تلك المدن لقرون طويلة غابرة.

ولا ينكر العرب المسلمون سابقا أو لاحقا دور الحضارات السابقة ذلك أن التنافس والاحتكاك بين الحضارات لمختلف الأسباب سواء الجغرافية منها لقرب المسافات بينها أو نتيجة الغزو الذي يجوز بأصحابه الصحاري والقفار ويعبر بهم الأنهار والمضايق ، يخلق هذا التنافس والاحتكاك تلاقحا حضاريا عاشته الشعوب والأمم مذ وجدت على كوكب الأرض وهذا التلاقح بدوره أثمر جينات وراثية جديدة جادت بقطافها على شعوبها وأممها فأكلت من ذلك القطاف واستشعرت لذة ثمار هذا التلاقح في كل مجالاته

يقول أوليج جرابار^(١) هناك طريقتان في النظر إلى تراث أمة من الأمم !

الطريقة الأولى : أنه ينظر إلى تراث أمة معينة من حيث تأثير ذلك التراث على غيره .

الطريقة الثانية : هي من حيث منجزات ذلك التراث .

ولا يبعد زميل جرابار المستشرق جوزيف شاخنت^(٢) عن هاتين الطريقتين في النظرة لتراث الأمم فيقول : إن كلمة تراث تستخدم بمعنيين اثنين – محددًا على وجه الخصوص التراث الإسلامي - .

أولهما : أنها تعني إسهام الإسلام في إنجازات النوع الإنساني بكل مظاهرها.

وثانيهما : اتصال الإسلام ولقائه وتأثيراته على ما يحيط به من العالم غير

المسلم

إلا أن جرابار يستثني العمارة الإسلامية من طريفته الأولى ويشير أن الطريقة الأولى تصبح غير ذات معنى عند العمارة الإسلامية وذلك لضعف تأثيرها – أي العمارة الإسلامية – على غيرها لعدة أسباب يتعلق بعضها بطبيعة العمارة نفسها والبعض الآخر يتعلق بالإسلام نفسه ، إذ أن انعدام وسائل النقل السريعة وعدم وجود التصوير هي أسباب تجعل تأثير فن معماري ما على آخر يكون محدودا وبطيئا لأن فن العمارة مرتبط أكثر من غيره من الفنون بالبيئة التي ينشأ فيها ، وأن هذه القاعدة لها استثناءات في مناطق الحدود مع الغرب مثل وسط اسبانيا حيث نجد العمارة الإسلامية ذات أثر بعيد في العمارات المسيحية واليهودية خلال العصر الإسلامي في الأندلس وبعده^(٣) وحتى هذا التأثير يراه جرابار كأنه جاء قسريا في ظرف فريد من نوعه^(٤) في إشارة لوجود المسلمين ألقسري – بنظره – في الأندلس.

هذا ما يتعلق بطبيعة العمارة نفسها وأما ما يتعلق بالسبب الثاني الذي رآه جرابار عائقا بوجه تأثير العمارة العربية الإسلامية على غيرها فهو الإسلام نفسه إذ أن الإسلام في فترات تكوينه لم يشأ أن يكون له طابع معماري خاص ويستشهد بالكعبة مثلا له في أنها ذات هيئة بسيطة حددت بناء على طريقة استخدام الشعائر التي تقام حولها دون الالتفات إلى هيئة جمالية فيها ويجعلها – أي الكعبة – في ميزان المقارنة مع المعابد المسيحية الكبرى والمعابد الزرادشتية ، ويقول : أن لا غرابة في هيئة الكعبة هذه إذ أنها من عمل العرب قبل الإسلام^(٥) ، ويشير إلى فخامة المعابد المعمارية واليونان الشاسع بينها وبين الكعبة في جمالية عمارتها وذلك في سياق تعزيز رأيه أن الدين الإسلامي كما أوحى به إلى النبي (ﷺ) وكما عرفه خلفاؤه الأوائل إذ لم يحاول أصحابه ولا شعروا بالحاجة لأن يعبروا عن إيمانهم تعبيرا معماريا ذا فخامة^(٦) وبقدر نسبة الصحة والتي بنيت عليها آراء جرابار وغيره في هذا المجال، فيبدو أن المستشرقين عندما يشيرون إلى تعثر فن العمارة عند المسلمين فإنهم يستشهدون بالفترات الأولى لنشوء الدولة العربية الإسلامية والتي تشاغل فيها المسلمون عن عمارة المباني والقصور والصروح بعمارة رسالتهم – قاعدة الحضارة ومنها العمارة – فأعطوها القسط الأعظم من وقتهم وجهدهم ومالهم وفي أحيان كثيرة نفوسهم .

ولعل جرابار وضرباؤه لم يتنبهوا إلى النصوص القرآنية التي تبين سلم الأوليات عند المسلمين فإن القرآن الكريم يجعل الإيمان و عمارة النفس أولا ولا يحرم العمران بل يجعله بالمرتبة الثانية فيقول " أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ"^(٧) ، ويقول ابن خلدون " فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة أو البنيان أو الإسراف في غير قصد"^(٨) وفي جانب النعمة وإظهارها يقول النبي محمد(ﷺ) " إن الله جميل يحب الجمال"^(٩) ويقول أيضا " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"^(١٠) ،

وإذن فالإسلام يمنع عندما تكون العمارة والبذخ وحب التفاخر بمركز أعلى من الهدف الأسمى للرسالة وهي دلالة الناس على ما يعمر صدورهم ويؤمن لهم عمارة أبدية وعدهم الله بها في الحياة الآخرة وتلك العمارة الحقبة بنظر المسلمين لا تضاهي جزءا بسيطا منها عمارة الدنيا والتي لم يمنعها الإسلام إلا بقدر تأثيرها على نفس من أراد عمارة الآخرة . والدليل على ذلك إن المسلمين لما أستقر بهم المقام طفقوا يعمرون البلدان ويبنون المدن .

وأما القول أن طبيعة الإسلام قد حجمت الإبداع في العمارة الإسلامية فهو مما يندرج ضمنيا مع التعليل الأول في أن المسلمين منشغلين بما هو أهم لا لأن منهجية الإسلام تحد من العمارة ، وهو افتراء محض على أدبيات المسلمين وإستراتيجية منهجهم الذي يدعو إلى عمران الأرض بما يصلحها للناس ولا أدل من قرآن المسلمين شاهدا على هذا إذ يقول "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"^(١١)

ب- أثر المدينة العربية وتأثرها بغيرها قبل الإسلام .

يؤكد المستشرقون أن جزءا كبيرا من مفاصل الحضارة لأي امة من الأمم تتجسد في مدنها ولا شك أن المدن بعراقتها وآثارها وعمائرها وزخارفها وحسن ترتيب أحيائها وما إلى ذلك إنما تعكس جانبا عظيما ومهما من حضارة أي شعب من الشعوب ، ويجسد المستشرق (بولدنك- Boudling) هذا المعنى بمساحة أكبر للمدينة في حيز فهم الحضارة بل أنه يجعل المدينة في ميزان المساواة مع الحضارة إذ يقول "أن المدينة هي الحضارة"^(١٢)

وقد عرف العرب قبل الإسلام حضارة ومدنية راقية وخاصة في البناء إذ تتجلى في عدة صور منها ما ذكرته المصادر في وجود النقوش في قصر أحد ملوك اليمن كما عثر على آثار عربية في تدمر بسوريا وكذلك دولة الحضر في شمال غرب العراق ترجع إلى ما قبل الإسلام – القرن الثاني قبل الميلاد الى الثاني ميلادي – ومنها سد مأرب المتهدم سنة ٥٤٢م ومنها المدن التجارية الهامة مثل البتراء ومدائن صالح وهجر وقصور ملوك سبأ وذي ريدان في صنعاء وهو قصر غمدان المؤلف من عشرين طابقا عاليا والذي يؤكد براعة السبأيين في العمارة^(١٣)

ومما يشير إلى مدنية العرب قبل الإسلام أن إحدى نظريات الحضارة والمسماة بنظرية الثورة الحضري (Theory of urban Revolution) ترى " أن وادي الرافدين هو منشأ الحضارة حيث بدأ إنتاج الغذاء بدلا من الجمع والصيد ، وطورت أول المستقرات البشرية (ريفية) بين الألفين التاسع والسابع قبل الميلاد ، وتطورت طريقة الحياة عند أواخر الألف الرابع قبل الميلاد بإنشاء أول المراكز الحضرية الأصلية التلقائية مثل مدن أوروك وكيش وأكد مع ما رافقها من ممارسات التعليم"^(١٤)

ولقد وقف المستشرقون من خلال بحثهم في عمارة العرب قبل الإسلام على أكثر من مؤثر تفاعلت معه المدن الإسلامية في جانب العمارة وهذا التأثير المتبادل كان في احد شقيه يتمثل في مدن الوطن العربي ما بين مشرق الوطن ومغربه وأما شقه الثاني فكان مع الحضارات المجاورة فبالنسبة للتأثير المتبادل داخل الوطن العربي في مدنه بين المشرق والمغرب فإن المستشرق لويس ممفورد بين هذا التبادل في عدة آليات عرج عليها إذ يقول " لا بد من أن المظهر العام للمدن القديمة في شمال أفريقيا شبيه جدا بمظهر مدينة ذات أسوار في بلاد ما بين النهرين فقد كانت توجد ذات الشبكة من الطرقات الضيقة او بالأحرى الأزقة التي ربما لم يزد عرضها على ٢,٤ متر والمنازل نفسها ذات الطابق الواحد أو الطابقين أو الثلاثة وذات الأسطح التي يمكن استخدامها وذات الأفنية الداخلية وأخيرا المعبد المدرج السامق الذي كان يشرف عليها جميعا ، مثلما تشرف مئذنة المسجد على المدينة الإسلامية ، وفيما وراء حرم المعبد كان نسيجا محوطا بالأسوار كما تمتد من مناطق الجوار التي كانت تتفاوت في تلاصقها وتوجد فيها هياكل ومعابد أصغر حجما ليستخدما أصحاب البيوت في العبادة" (١٥).

وحول التأثير المتبادل للمدينة الإسلامية مع من جاورها من الحضارات يختلف على سبيل المثال المستشرقون في مصدر التأثير لشكل مدينة الحضر القريب الى الدائري إذ يرجعه (جوان ريد- julin Reade) إلى تأثر تلك المدينة بتخطيط المعسكرات الآشورية^(١٦)، في حين يستدل جرجي زيدان بشكل مدينة مأرب والتي تذكر المصادر أنها دائرية ويشير بتأثيرها على الحضر كونها الامتداد الحضاري في جنوب شبه الجزيرة العربية^(١٧) على أن Routhier يشير الى أن شكلها ربما اقتبس من شكل الخيمة الدائرية وينفي كونها بناءا فرثيا^(١٨) وربما ارتكن Routhier في تفسيره هذا إلى أن معظم أهل الحضر من العرب كانوا يسكنون الخيام^(١٩).

وبقدر قيمة هذا التأثير ووزنه في كونه آشوريا او من جنوب جزيرة العرب أو فرثيا على أصالة المؤثر عليه فإن مدينة الحضر العربية تبقى شاهدا نابضا لقيمة الإنجاز وكونه دالا على اهتمام صانعيه بضرورة النهوض بمدنهم وجعلها معالم حضارية ومدنية عاشوا لها وسجل لهم التاريخ اهتمامهم هذا .

ج- أثر البداوة على تحضر المسلمين في نظر المستشرقين

كان مما الصقة الكثير من المستشرقين بالعمارة العربية في محاولاتهم تجريد العرب والمسلمين وسلخ انجازاتهم عنهم هي محاولتهم إصاق البداوة بالعنصر العربي وتصوير العقل العربي بأنه يفكر ببلاده انسحبت عليه من مجتمعه الذي يحيا ويعيش به في الجزيرة العربية قبل الإسلام متغافلين عن أن العرب لم يكونوا كلهم بدوا وان شواخص حضارتهم إلى الآن موجودة في مدنهم ، وحتى من لا نجده متحاملا منهم بصورة علنية فإننا نجد بين ثنايا ما كتبه فهما مشوشا عن نظرة المسلمين للتمدن بحيث قاده هذا الفهم المضطرب في نهاية المطاف إلى نتاج سيئ

يسيء ل نظرة المسلمين لهذا التمدن وهو بذات الوقت يحجب عن القارئ حقيقة النظرة التمدنية للعرب تجاه العمارة والمدنية.

وعلى سبيل المثال يربط شولز عمارة المسلمين وجهودهم في هذا الحقل – التمدن – يربطها بجعل البادية مكانا للتوطن بكل معنى المصطلح " فمن خلال الإسلام تكتسب حياة البدويين في الترحال بعدا جديدا ، فتمطها التكراري الأبدى للحياة يصبح جزءا من الواقع الروحي وهي حقيقة تتمثل دينينا بالحج الى مكة" (٢٠) ويقرب شولز ذهن القارئ بما ذهب إليه من ربط وثيق في عراه بين العمارة والبداءة ليقتنع بذلك فيقول " إن أفنية العمارة الإسلامية ودواخلها تمثل إتاما للبوادي " (٢١) على أن الإسلام لم يأت للبدو خاصة وأنه – أي الإسلام – ذم البداءة في غير موضع من القرآن (٢٢) ، وأنه انتشر واستطار وتنامى أول عهده العصيب في المدينة فكانت حاضنة مشاريعه المعمارية الأولى كالمسجد النبوي ، وأن مكة ما جعلت للبدوي وحده وأن تردد الناس واختلافهم على مكة من حضرهم وبدوهم كان قبل الإسلام وهو لا شك ينضوي على الكثير من مظاهر التمدن ففي لقاءات الحجيج السنوية تتبادل الرؤى والأفكار وتزدهر المجالس الشعرية التي اشتهر بها العرب قبل الإسلام فضلا عن البيع والشراء والعلاقات الاجتماعية كالمصاهرات والأحلاف والاتفاقات بين القبائل.

ويبرر بعض المستشرقين تأثر الفن العربي الإسلامي بغيره أنه كان آخر الفنون العالمية ظهورا فيقول ج مارسيه " إن الفن الإسلامي هو آخر الفنون التي ظهرت للوجود من بين الفنون العظمى بالعالم القديم ولذلك فلا بد أنه تأثر بالفنون التي سبقته " (٢٣) وحتى لو فرضنا صحة هذه الجدلية فإن بين ثنايا هذا النص طعن لقابلية العقل العربي على التطور السريع من خلال التأثر السريع وهو لا شك يومئ ببلاهة نشأت معه فجعلته لا يتأثر سريعا بمن حوله وهذا على ما يبدو ما اراد مارسيه إيصاله. ثم أن تداعيات رأي مارسيه وشولز ليسا وحدهما اللذان يؤسسان لتخلف مبرمج أريد له أن يلتصق بالعقلية العربية المرادفة للبداءة برأي المستشرقين.

وإذا كان على القارئ لكي يفهم حقا ما قصده شولز او مارسيه أن يعيد النظر في قراءاتهم مرارا حتى يفهم فحواها فإن هذا القارئ لا يحتاج الى كثير عناء عندما يأتي على نصوص كريسول (٢٤) إذ يفصح عن مقاصده الحميدة ! مباشرة وبلا أدنى تحفظ وهو يجرد العمارة الإسلامية من العنصر العربي ويشير إلى أنه لا ينبغي أن يشار للعرب أو أن تقرن صفتهم عند الحديث عن العمارة الإسلامية لأن بلادهم كانت تعيش فراغا معماريا يكاد يكون تاما (٢٥) وهو ذاته يؤكد أن العرب قبل الإسلام ما كان لهم إلا أفكارا باهته أو بدائية عند البناء أو العمارة (٢٦) ، بل انه يقول في طعن مركب تتمثل فيه عدة مقاصد " إن الذي بنى الكعبة قبل الإسلام ببناء حبشي اسمه باقوم وأن طريقه بنائها نقلت نقلا عن الحبشة " (٢٧).

وإذا كان بعض المستشرقين يرى في هذا الطرح مجرد اقتباس حضاري من حضارة مجاورة فإن أحدا من كتاب المسلمين وآثارهم ومؤرخهم لا يمكن أن

بعده إلا قلعا جذريا لحضارة العرب والذين يستوحون من مكة ومكانتها الكثير من طرزهم المعمارية على مر التاريخ، إذ يقدح كريسول بكعبتهم وقبلتهم التي يصلون إليها والتي بناها إبراهيم الخليل بأمر من ربه وتوارثتها أجيال العرب والمسلمين يعتزون بسدانتها وحجابتها وعمارتها على الناس حتى قبل الإسلام^(٢٨) فإن أغلب مؤرخي المسلمين وآثاربيهم إن لم يكونوا جمعهم فضلا عن مثقفهم وعامتهم يكاد لسان حالهم يقول لو لم يكن للمستشرقين إساءة لمدينة المسلمين وعمارتهم إلا هذا لكافهم بها - اي المستشرقين - آثارهم النجيب كريسول !!؟.

وعن رد البداوة عن المجتمع العربي وكونها السبب في نقص مدينة العرب وبلادتهم ظهرت ومضات هنا وهناك من بعض المستشرقين الذين أشاروا ببطلان هذا الإدعاء ، ففي وثائق (الجنيزة- Geniza) المشهورة يشير (جويتاين- Goitein) إلى ان نسبة قلة التذوق في الحياة المدنية للبدو هو من الأخطاء الفادحة وإن العرب المسلمين هم من أشد الناس حبا للبناء والعمارة وأنهم عندما شرعوا يبنون مدنهم كانوا تواقين ومحبين لهذا البناء^(٢٩) ويؤكد المستشرق (بينت - Benet)^(٣٠) وهو احد علماء الاجتماع أن الإسلام دين اهتم بالمدينة وسعت دولته لمساعدة البدو على الاستقرار واجتثاث التقاليد البدوية ومنها ما قاموا به من توطين الناس في البصرة في زمن الدولة الأموية ثم أن وليم مارسيه أكد أن ينظر لارتباط انتشار الدين الإسلامي بإنشاء المدن وأنه دين حضري لا يسعه إلا أن ينتعش بمجتمعات حضرية كنظام للحياة في هذه المجتمعات وعلى هذا فهو - أي الإسلام - لا يتوافق مع الحياة غير المدنية للمجتمعات الريفية أو البدوية^(٣١) ، واتفق المستشرق جرونباوم مع ما ذهب إليه وليم مارسيه أن الدين الإسلامي يفضل حياة المدن لأن أداء الإسلام لواجبه لا يمكنه أن يتم إلا في المدن وهو - أي الإسلام - يفضل الحضر المستقرين على البدو^(٣٢) ، على أن هذه الآراء والاستدلالات على ما بها من طروحات إيجابيه وصحيحة فإنها قاصرة في قراءتها لمجمل إستراتيجية التوجهات الإسلامية إذ أن الإسلام جاء للجميع وطبيعي أنه ينتشر بصورة أكثر في البيئات التي تحوي كثافة سكانية أكثر لأن هذه الكثرة تولد احتكاكا وتبادلا للرأي بمساحة أكبر من البوادي والأرياف والقرى ، على أن هذا يفسر لنا سر نشاط النبي (ﷺ) في بواكير دعوته واستغلاله لمواسم الحج كفرصة لنشر دعوته^(٣٣) ، ولا يمنع الدين أو يدعو إلى عدم الانتشار في الأرياف والقرى البعيدة عن مراكز المدن أو أنه لا يستطيع أن يعيش إلا في بيئة حضرية كما أدعى وليم مارسيه بل أنه أخذ يبدد المجتمعات البدوية والقروية والقبلية ووضع أقدامها على جادة الحضارة والمدنية وجعلها تتفوق بمدة قياسية على من سواها بفضل نظرته الإيجابية للمدينة وكما ارتقى الإسلام بالمجتمعات الشرقية فإنه ارتقى بالمجتمعات الغربية في اسبانيا وغيرها مراقي الحضارة وانتشلها من جهل عميم كان يلفها بفضل تسلط الكنيسة والفونسوات والإقطاع فأفاد تلك الشعوب بفضل عالمية دعوته وحضارته والتي استطار بها على مدنهم وبلدانهم فصارت أكثر رقيا وحضارة .

د- العصر الذهبي للعمارة العربية الإسلامية وأثره بغيره .

لم تقتصر آلية التأثير المتبادل بين المدن العربية والحضارات المجاورة لها على المدة التي سبقت مجيء الإسلام فقد تعرضت المدن العربية بصورة عامة إلى موجة التأثير المتبادل في أساليب العمارة والخطط بالحضارات المجاورة فتداعى امتداد ذلك التأثير على مدن العرب بعد مجيء الإسلام وتأثرت الأقاليم الشرقية لدولة المسلمين ومدنها بما كان سائدا هناك من مخططات المدن ذات الأشكال المضلعة أو الدائرية ومن ذلك التأثير ما كان في مدن كالكوفة ومدينة السلام وطال أيضا بعض المدن في بلاد فارس كما تأثرت بذات الوقت مدن المغرب العربي بخطتها وأساليبها بنمط المخططات للمدن الواقعة تحت السيطرة اليونانية^(٣٤).

لقد أوضح المستشرق (لومبارد- Lombard)^(٣٥) في كتابه (العصر الذهبي للإسلام) علاقة الإسلام بالتمدن ونوه إلى عدة مدن في شمال أفريقيا وأخرى عراقية وسورية وأندلسية بشأن تقدم التمدن الإسلامي فيها بعد أن صارت تحت سيطرته وأن هذا التمدن كان ابعدا في استيطارته وأعمق غورا في تأثيره من التمدن الروماني وأنه يوازي ويضاهي التطورات التمدنية في الفترة الهيلينية وكذلك فترة نمو المدن في أوربا الغربية، ويشير Lombard إلى فترة الانفجار التمدني للمدينة الإسلامية من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميلادي وأن هناك ظروفًا وتطورات عامة شجعت كثيرا على النمو التمدني حيث تأسست مدن عديدة جديدة اذ يقول ما نصه "منذ القرن الثامن إلى الحادي عشر الميلادي شهد العالم الإسلامي توسعا حضريا ضخما، هذا التوسع تجسد في بداية الأمر ببعض المدن ثم تناما باضطراد حتى صار الأكبر في العالم"^(٣٦).

وفي هذه الفترة عاشت أوربا عصورا مظلمة حيث انعكست هذه الظلمة على مدنها إذ قل سكانها لأن المدن الأوربية شهدت هجرة من المدن نحو القرى إذ كان يسود نظام الإقطاع^(٣٧)، ويشير ستيف رانسمين إلى الحقبة المظلمة في تاريخ أوربا وهو يذكر أمثلة بسيطة من حياة الناس توشر لذلك التخلف العميم الذي كان يلغها فيقول "لقد كان السفر في أوربا بالمركبة ذات العجلات سنة ٧٠٠م أيسر منه سنة ١٧٠٠م، ذلك أن الطرق التي بناها الرومان بقيت دون ترميم وصيانة حتى حل القرن الثامن عشر فتردت وساء أمرها بمرور الزمن، وكانت عادة الاستحمام في القرن السابع أكثر انتشارا مما كانت عليه في القرن السابع عشر... لقد كانت الحياة فيها صعبة لا تقرر على حال... وكانت بعض المدن والأديرة التي حاولت الاحتفاظ بشيء من العلم تحرق وتمحى من وجه الأرض... ولو كنا من أبناء تلك الحقبة وأردنا أن نحيا حياة مدنية وجب علينا ألا نتعب أنفسنا في البحث عنها في أوربا الغربية بل نتوجه إلى الأندلس الإسلامية حيث كان مستوى المعيشة عاليا ومريحا"^(٣٨).

ويصور جيمس فلक्स جونز حالة اليونان وروما أيام كانت مدينة السلام حاضرة العباسيين فيقول "لقد أفلت عظمة اليونان وتدهورت روما فكانت ابعدا واضعف من أن تصبح خطرا على أولئك الذين دكوا الممالك"^(٣٩) وعلى الرغم من

نشوء عدد من المدن في هذه الفترة فإن الانتقال من المدينة إلى القرية يؤشر مستوى معاناة المدينة الأوربية وترك أهلها لها وتفضيلهم للقرى على سكنها.

ويعطي لسنر نسبا بالأرقام للنمو التمدني في حقيقة تؤشر حجم العمران في الدولة العربية الإسلامية فيقول "إن المجموع الكلي للبناء في العهد الإسلامي ما عدا المراكز الدولية أكثر مما كان في العهد البارثي غير أنه أقل بصورة ملحوظة مما في العهود الساسانية ، أما إذا دخلت بغداد في الحساب فإن البناء الإسلامي كان أكبر مرتين ونصف مما كان في الفترة الساسانية فإذا أضيفت سامراء فإنه يصبح أربعة أضعاف مجموع المستوطنات ومن الواضح أن النمو السريع للعواصم العباسية لم يكن مسبوقا في التطور التاريخي للمنطقة، ولا بد أنه أثارته تطعيمات من المصادر البشرية والطبيعية"^(٤٠).

ويصف (جويتاين- Goitein) هذا النمو السريع في العمارة سواء في العاصمة أو بقية مدن الدولة العربية الإسلامية انه "ثورة في التمدن العالمي"^(٤١)، كما أن كتابات المستشرق (لابيدوس- Lapidus) في هذا المجال تشير للحركة الدؤوبة التي مرت بها المدينة الإسلامية في عمارتها إذ ترجع قسما من أسباب انتعاش هذه المرحلة من مراحل عمر المدينة الإسلامية إلى أن إدارة الدولة قد دفعت حركة التمدن دفعات قوية إلى الأمام بما اتبعته من سياسات تنمية النشاط الزراعي والتجاري كما ساعدت الظروف الإدارية والسياسية على نمو المدن.^(٤٢)

على أن خصوصية العمارة العربية الإسلامية ومكانتها وتميزها من غيرها بما تحمله من عمق فكري وأخلاقي، قد أشار إليه اوليج جرابار معترفا بألية النجاح المبكر الذي حققته تلك العمارة إذ يرجع جرابار سبب النجاح إلى ظهور الحاجة التي استشعرها قسم من خلفاء الدولة العربية الإسلامية في العهد الراشدي وكذلك العهد الأموي وولاتهم في الأمصار الإسلامية لإظهار حقيقة الوجود الإسلامي في صورة مادية تختلف عما يحيط بها وتتميز هذه الصورة مع ذلك الوجود بهيئة إسلامية معروفة وهذا - على ما يقول - على جانب كبير من الأهمية عند محاولة تقدير تراث الإسلام المعماري^(٤٣)، وهو بطرحه هذا يجيب عن سؤال طرحه بنفسه - جرابار- يستعلم فيه سر هذا النجاح في العمارة الإسلامية إذ كيف يخلق طراز معماري نفسه في هيئة متميزة ثقافيا؟ ويتمثل ذلك- يجيب جرابار بنفسه- في تصور ما اختارته الثقافة الإسلامية وما رفضته، وعن طريق ما أخذت وما رفضت أنشأت لنفسها صورة خاصة اجتهدت تلك الثقافة في إبرازها^(٤٤).

وينقلنا البروفيسور كريستيان نوربيرغ شولز إلى بعض أسرار نجاح العمارة العربية الإسلامية وتآلقها وتأقلمها مع الواقع الذي تعيش فيه، وكيف أنها عمارة متجددة تصلح لكل زمان ومكان فيقول "أن العمارة الإسلامية بسبب سماتها الأزلية والعامية، قد بقيت طوال قرون حياتها وفي تباين الأمكنة وتحت مختلف الظروف المتبدلة ساعية تنبض بالحياة، كما أنها بقيت منفتحة تجاه التكيف وفق الظروف، إنها ومن غير أن تتخلى عن مميزاتها العربية الأساسية لقادرة على الاتسام

بالصفات المحلية الخاصة كالفارسية والمصرية والمغربية والهندية والتركية مما يحدو بي إلى الاعتقاد بعدم وجود سبب لأن لا تكون العمارة الإسلامية عمارة معاصرة".^(٤٥)

وقد يكون بولاديان محقا عندما يعيب على البعض من معماريي العرب المسلمين اليوم استيراد أفكارهم المعمارية ويحثهم على الإبداع من خلال بعث الروح الإبداعية في استعادة تخطيط مدنهم القديمة والتأسيس لفن عماري يستوعب الفن القديم وينميه بهيئة جديدة إذ يقول ما نصه "أن المدينة العربية القديمة بتخطيطها المتكامل الرائع كفيل بأن يحل كل الأزمات التي تعاني منها المدن الجديدة التي خطت على أسس غريبة عن واقعها، مستوردة الأفكار من الحضارة الأوروبية المعاصرة".^(٤٦)

على أن مآخذ بولاديان على المعمارين قد لا تكون موضوعية إذا ما استوردوا أفكار الحضارة الغربية والتي لا تبارى اليوم وحاولوا توظيفها معينا لأصالة أمس والخروج بطرز معمارية تمازج بين أصالة الماضي العربي الإسلامي وحادثة الحاضر الغربي فان هذا بحد ذاته إبداع يحسب للعمارة العربية الإسلامية بعدم جمودها واجترارها أصالة عريقة! تراوح مكانها ولا تلحق بركب الحضارة المعاصرة.

وعلى هذا فلا بأس من أن نوظف أصالتنا بالحفاظ على أساسياتها مع الحرص على تتميتها بأنماط جديدة وفقا لما توصل إليه الآخرون.

واخيرا فقد توصلت هذه الدراسة إلى جملة نتائج تتعلق بنظرة المستشرقين للمدينة العربية الإسلامية بصورة عامة وهي:

١- أن العرب المسلمين لم يخربوا المدن أو يشوهوها بل أنهم وجدوا أثناء فتوحاتهم مدنا قديمة أو أنقاض مدن فطوروها، وأضفوا عليها من حضارتهم ولم ينتقصوا من حضارات من سبقهم من الأمم على وفق أدبيات شريعتهم السمحة والتي جاءت للإنسانية ولم تأت للعرب وحدهم وعلى هذا فقد أثروا بمن عاصروهم أو جاءوا بعدهم، وتأثروا بمن كان قبلهم من الأمم على وقع هذه الديناميكية في التعامل.

٢- إن العرب المسلمين انتقلوا بفترة قياسية وسبقوا بأشواط بعيدة حضارات من سبقهم من الأمم بدليل ما عاشوه من عصر ذهبي وبفضل إنسانية حضارتهم، لذلك فإن إصاق صفة البداوة -الموجودة عند بعضهم والتي نبذتها شريعتهم - هو تجنٍ يحاول به أصحابه الانتقال من تلك الحضارة والمدنية.

٣- إن ما انتهت إليه المدينة الأوروبية في أقصى مراحل تطورها وهو ما اسماه المستشرقون بـ (المدينة الأم- Metropole) قد وصلت إليه المدينة الإسلامية في بواكير نشأتها وان توابع المدينة الإسلامية من المدن أيام رقيها اكبر بكثير من توابع المدينة الأوروبية الحديثة .

٤- أن المستشرقين لم يوفقوا في تعميم قاعدتهم المعرفية في تعريف المدن على وفق نظرياتهم العديدة، لم يوفقوا في تعميمها على المدينة العربية الإسلامية لخصوصيتها بارتباطها عميقا بقواعد الشريعة.

Abstract.

It is important to most researchers in various fields today, found on the face of Orientalism in order not to isolate themselves Ntegathm in a narrow circle Ankvan them on their views and walking Barakbha, and according to this vision has stood the study on the views of Orientalists in the city, the Arab-Islamic and the mechanism of evolution in the study of budget analysis withcame Arab resources in this area Liban to the reader what the two views and stands on Hithiathma.

Since the urban material culture and Snamha or is the same civilization, it was cultural exchange is present between the Arab Islamic cities in the Arab world, as well as between them and the neighboring cities in the mechanism differed Orientalists in the interpretation and ran aground in most joints toward looking down on the right of Arabs and Muslims as contrived by and tried to glued nomadism as a reason for failure of the Arabs and they said they believed he should not associate the name with the Arab civilization and urbanization of the ideas that they are the dull and rudimentary

That these opinions refuted the mechanism that drives the Muslim Arabs in all areas of civilization and progress of the convoy of humanitarian shortly relatively indicates the explosion Altmdna between the seventh century to the atheist century AD and witnessed by the cities of Muslims as a sign of this movement and activity clearly recognized by the

Orientalists themselves, and what The Orientalists had shot down their visions in their cities on the Islamic city as an urban should be subject to the same mechanism in the evaluation and before that would penetrate study the views of the Orientalists the city's Muslim according to this standard view that stands on the city's European at a glance in which to identify the most important stages of development as it concluded that the the last, and reached that city from the development stage is (City mother - Metropole) and that this stage - the city mother - which qualified the Orientalists their cities and modern Tbjhawwa in the development of the Islamic city has experienced in the early inception, to the large number of accessories from the cities.

I've tried much of the Orientalists of the city's Arab-Islamic as brought by the theories of scholars and Achtsasiém the theory of Max Weber's famous characteristics of the five, called the theory of the ideal model or walked the march (k Gronbaum) and (Bernier) and others, and this in itself to drop unfair because Orientalists did not realize the privacy of the Islamic city, linked with strong rules of law, that the differing opinions of them in this view point to some of the equity in the vision of the Islamic city, such as look (Albert Hourani) and (Raymond) and others, and some of them looked at her as social institutions and how to control it by connecting all segments of the community system based peace gradient in the social structure of that society.

that some of them were sighted in Ndharth Making dynamic Islamic law the basis for these succulent and construction associated with the development of a continuous basis of which is derived from the inspired law which dictate the dynamic evolution.

The study found overall that brought him from the views that the fresh Orientalists divided between looking down and prejudice tainted the purposes of the conspiracy to diminish civilian Muslims and their civilization and justice was tainted by the ignorance of why the real carrying civilian Muslims and their civilization and its venue and attain success in record time, and Alndhartan that our good between them, the left with the Ahnohmadistorted and therefore for this study was the opinion of the movement of its continental shelf to Amadana within the pages of the study to remain as a hidden motive in this conclusion for the reader to study and lest we go in the sweetness of output Bwakirh. Praise be to God first and foremost and blessings of Allaah be upon our master Muhammad and his family and companions

Researcher

الهوامش والمصادر

- (١) جرابار، اوليج، الفن والعمارة، سلسلة تراث الإسلام، تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، فؤاد زكريا، ط٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت / ١٩٨٨م، القسم الثاني/ص ٣٥٨ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
- (3) Marçais.G. L'Architecture Masulmane d'occident' (paries,1954) ,P.361.
- (٤) جرابار، الفن والعمارة، القسم الثاني / ص ٣٥٩ .
- (٥) ينظر كلام كريسول ورأيه في بناء الكعبة على ص؟ من هذا البحث
- (٦) جرابار، الفن والعمارة، ص ٣٦٥ .
- على أن الدين المسيحي الذي استشهد بكنائسه وبيعه كمنشآت معمارية -فاقت بعمارتها مساجد المسلمين البسيطة؟- هذا الدين فيه رهبانية تدعو إلى الانقطاع والانعزال إلى الحد الذي تمنع فيه الزواج من قبل الرهبان والراهبات والمفضي إلى تكوين النسل وهو رافد العمارة - المحرك الأساس للحضارة بأجمعها - في الوقت الذي دعت فيه أدبيات المسلمين إلى التزاوج المفضي لتكوين أيدي عاملة تساهم بالعمارة .
- (٧) التوبة/آيه ١٩؛ وينظر في تفسيرها: الطبري، محمد بن جرير، ت: ٣١٠هـ، جامع البيان في تأويل أي القرآن، دار الفكر، بيروت/١٩٨٤م، ١٠/٩٤-٩٨؛ القرطبي، محمد بن احمد، ت: ٦٧١هـ، تفسير القرطبي، تحقيق احمد عبد العليم البردوني، ط٢، دار الشعب، القاهرة / ١٩٥٢م، ٨/٩١-٩٢؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت: ٧٧٤هـ، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت/١٩٨٠م، ٢/٣٤٣ .
- (٨) ابن خلدون، القاضي عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت: ٨٠٨هـ، المقدمة، مراجعة: سهيل زكار، ط٢، دار الفكر، بيروت/١٩٨٨م، ص ٣١٢ - ٣١٣ .
- (٩) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ت: ٢٦١هـ، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت/بلا، ١/٩٣؛ البستي، محمد بن حبان بن احمد، ت: ٣٥٤هـ، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت / ١٩٩٣ م ، ١٢/٢٨٠؛ الحاكم النيسابوري، محمد بن عبدالله أبو

عبدالله،ت:٤٠٥هـ،المستدرك على الصحيحين،تحقيق:مصطفى عبد القادر،دار الكتب العلمية،بيروت/١٩٩٠م،١/٧٨.

(١٠) الشيباني،احمد بن حنبل،ت:٢٤١هـ،مسند احمد،مؤسسة قرطبه ، القاهرة /بلا.تا ، ١٨٢/٢؛ الترمذي ، محمد بن عيسى ابو عيسى،ت:٢٧٩هـ، سنن الترمذي، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار إحياء التراث،بيروت/بلا.تا،٥/١٢٣؛ أبو يعلى، احمد بن علي بن المثنى، ت:٣٠٧هـ،مسند أبي يعلى، تحقيق:حسين سليم،دار المأمون، دمشق/١٩٨٤م،٢/٣٢٠.

(١١) هود/أيه ٦١؛وينظر في تفسيرها :الطبري، جامع البيان ،٦٢/١٢؛ القرطبي ،نفسير، ٥٦/٩-٥٨؛السيوطي، محمد بن احمد، ت:٩١١هـ، تفسير الجلالين،دار الحديث، القاهرة/بلا.تا،١/٢٩٣.

(12) Kenneth E.Boudling:"The death of the city :AFrightened look at past civilization " in the Historian and the city . P.133

وينظر:- شلبي، ابو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي،ط٦، القاهرة/١٩٨٤م، ص٥-١٠ .

(١٣) خربوطلي،شكران ؛ مصطفى فوزي ؛ علي عبد الكريم ، الحضارة العربية الإسلامية - آثار وفنون - دمشق /٢٠٠٨م ، ص٢٤ .

(١٤) اوتيس ، ديفيد وجوان، نشوء الحضارة ، ترجمة : لطفي الخوري ،بغداد /١٩٨٨م ،ص١٤٩؛للاستزادة حول التطور الحضاري في بلاد ما بين النهرين وظهور المدن وأنواعها يراجع: الأعظمي،محمد طه ،الأسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة ،رسالة دكتوراه غير منشوره،كلية الآداب/جامعة بغداد،بغداد/١٩٩٢م،ص٢٤-٤٥.

(١٥) مفورد،لويس ، المدينة على مر العصور - أصلها وتطورها ومستقبلها ، ترجمة : ابراهيم نصحي ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص١٣٣ .

(16) julin Reade,Assyrian Sculpture.Harvard university press,(U.S.A)1983 ,P.39 .

(١٧) زيدان، جرجي ،العرب قبل الإسلام،دار الهلال،القاهرة/١٩٣٩م ،ص١٦٣

(18) Rauther,O: Parthin Architecture,U.S.A,1938 .Vol.1.pp.42-44.

(١٩) العبيدي،شاكر محمود إسماعيل ،حضارة دولة الحَضَر (الحَضْر) العربية في ضوء الكتابات القديمة ، اطروحة دكتوراه ، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، بغداد /٢٠٠٥ ، ص١٥١ .

(٢٠) شولز،كريستيان نوربيرغ،العمارة الإسلامية -عمارة التوحيد-،ترجمة:محمود حمندي،المورد ، مج ١١ ، العدد الأول ، بغداد /١٩٩٣ ، ص٨٠ .

(٢١)المصدر نفسه .

(٢٢) ويبدو أن شولز وضرباؤه ممن كانت ضبابية الفهم تغطي عقولهم حول مدنية العرب المسلمين لم يقفوا مليا على خلفيات هذه الجزئية في تاريخ تمدن العرب المسلمين وأدبيات جذور التحضر وقوانينه الأولى عندهم، فقد ذم الأعراب في غير موضع من القرآن لنفاقهم وتخلفهم عن نبيهم فقال تعالى "وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ... "التوبة/آيه ١٠١ . وقال "مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ "التوبة /آيه ١٢٠ . وقال أيضا "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ "الحجرات/آيه ١٤ ، وغيرها مما سجله القرآن وهو يذم الأعراب وطباعهم ، وتسجل كذلك السيرة النبوية ان اعرابيا بال في مسجد رسول الله(ﷺ) فأراد بعض الصحابة انتهاره فقال لهم رسول الله (ﷺ): دعوه ولا تزرموه، فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبه عليه.(مسلم، صحيح، ٢٣٦/١) ، وعلى هذا فإن الآيات والشواهد تؤكد أن عقلية الإعرابي مذمومة بل أن النبي (ﷺ) قال في شهادة الأعرابي "لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية". البيهقي، احمد بن الحسين بن علي، ت: ٤٥٨ هـ، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: احمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، ٢٥٠/١٠، وعلى هذا فقد عمل الإسلام جاهدا منذ البواكير الأولى لنشأته على الحد من البداوة وإبدالها بالمدنية والتمدن، ما استطاع الى ذلك سبيلا، فبنى على ما هو طيب من خلق البدوي وطباعه وهذب وشذب ما ذم من ذلك .

(23) Marcais. G, L'art Musulman des origins a nos jours, Vol.II ,paris ,1933 ,T.I ,P.12.

(٢٤) (K.A.C. Creswell، ١٨٧٩-١٩٧٤م) عالم آثار انكليزي، درس العمارة الإسلامية سنة ١٩٠٠م، وعمل مفتشا للآثار الإسلامية في سوريا وفلسطين ١٩١٨م ، استوطن القاهرة عام ١٩٢٠م وعين مديرا لمعهد الفن والعمارة في الجامعة المصرية وأستاذًا لنفس التخصص بالجامعة الأمريكية في القاهرة عام ١٩٥٦م، اجمع العلماء على أن مصنفاته ستظل مرجعا في العمارة الإسلامية، آثاره كثيرة ومؤلفاته وخاصة في آثار مصر والعراق والشام وفارس والهند، يعد كتابه العمارة الإسلامية الأولى أضخم نتاجاته ١٩٣٢-١٩٤٠م، وهو جزأين ثم اختصره كريسول في كتاب صغير اسماء مختصر العمارة الإسلامية الأولى. العقيقي، نجيب، المستشرقون- موسوعة في تراث العرب ،مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ الف عام وحتى اليوم، ط٥، دار المعارف، القاهرة/٢٠٠٦م، ١٦٨/٢-١٦٩ .

(25) Creswell, K.A.C. Early Muslim Architecture, Vol.I, London ,1932, P.7

يقول الدكتور فريد شافعي حول رفض بعض المستشرقين الإشارة للعرب أو إقرانهم بالحضارة العربية الإسلامية " أن الغربيين حاولوا حرمان العرب أن تسمى حضارتهم وعمارتهم وفنونهم بالعربية نسبة إلى دولتهم التي بسطت نفوذها على عدة أقطار إسلامية تسكنها شعوب عربية ، بينما لم يحرم الرومان والبيزنطيون

والساسانيون من أن تنسب حضارتهم وعمارتهم وفنونهم اليهم ، مع أن هذه الدول كانت تتكون من أجناس وشعوب مختلفة ، ومع أن علماء الفنون والآثار هم أدرى الناس بأن كل طراز فني من تلك الطرز قد قام على أسس من فنون أخرى معاصرة له أو سابقة عليه". شافعي، فريد ،العمارة العربية في مصر الإسلامية،القاهرة /١٩٧٠ ، ص ٢٤ .

(26) Creswell,OP.Cit.Vol.1,P.90.

(27) Ibid,Vol.1,P.7.

(٢٨) لقراءة ثلاثة آلاف من السنين يشير القرآن الكريم لاهتمام الإسلام بالعمارة ويحدد قوائمه الأولى وجذوره وذلك عندما يأمر الله عز وجل إبراهيم الخليل ببناء الكعبة فيقول "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" البقره/ايه١٢٧، وهو أيضا البلد الأمين "فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا " آل عمران/ايه٩٧، ويقول أيضا "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ لِي ذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ "البقره/ايه١٢٦، ولقد نعته الله عز وجل بالبيت على مستوى الكعبة والبلد على مستوى مكة وأودع فيه أهم صفتين وهما الأمان وتكفل الله لأهله بالرزق فقال عز وجل "الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" قريش/ايه٤، ولا شك أن خطابا كهذا لأهم مدينة على الإطلاق عند المسلمين قد اتخذه المسلمون أساسا لمدينتهم لارتباطه بأيدولوجيتهم ورزقهم وأمنهم وعمارتهم وتجمعهم، وكلها عناصر ارتبطت بالتحضر والعمارة وأشرت لمنظور حضاري عريق

(29) Goitein:"Cario :An Islamic city in the light of the Geniza Docements" in middle Eastern cities,U.S.A, 1966.PP.75-83.

(30) F.Benet:"The Ideology of Islamic Urbanization " in International J.of comparative sociology (Vol .IV/1963) ,PP.211-226 .

(31) Haneda.M and Miura,T. Islamic Urban Studies,London,1994 ,P.34-35.

(32) Grunebaum, G. " The Structure of the Muslem Town" in Islam : Essays in the Nature and Growth of acultural tradition. London: Routledge and kegan paul,1955 .p142.

إن أول مدينة نشأت في الإسلام تكونت من مجموعة قرى كانت تسمى يثرب تحولت إلى مدينة ذات شرعة (دين) وسلطان (دان) وتتميز عن باقي أوجه الاستقرار البدوي والقروي وكانت لها سلطة وثيقة لا تنفك عن نموذج المسلمين في الحياة الإنسانية، فإن صلاة الجمعة لا تكون إلا بها لأن المسجد الجامع لا تحويه إلا

المدينة فهي الرابط بين الجمعة والجماعة وكانت مقر الإمارة السياسية فمنها ينطلق الجهاد وفيها مقرات المهن كالزراعة والتجارة وسائر المهن ، ينظر: السيد ، رضوان، مصائر المدينة العربية ، مجلة الفكر العربي ، ع ٣٩ ، بيروت /١٩٨٣ ص ٤-٧،

(٣٣) جاء في السيرة النبوية "وكان من أمر رسول الله (ﷺ) في مكة أنه كلما اجتمع له الناس بالموسم-موسم الحج- أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده" ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري، ت: ٢١٨ هـ، السيرة النبوية، تحقيق، مصطفى السقا وآخرون، بيروت/١٩٨٦م، ق١/ص٤٢٥

(34) Ismail, A.A, Origin, Ideology and Physical Pattern of Arab Urbanization, Ekistics, No.195. FEB, 1972, P.113-114.

ويسلط زهير صاحب الضوء على مدنية السومريين والذين سبقوا البابليين المؤثرين على اليونان فيقول حافظ السومريون وبأمانة مطلقة على خارطة توزيع القرى الزراعية الأولى على أرض العراق من الناحية المكانية التي أسسها سابقوهم في عصر ما قبل التدوين ، والمثير هنا هو أن السومريين طوروا وبفاعلية ، نظام التخطيط الحضري والإقليمي للقرية إلى نظام المدينة والتمدن ، فقد اقترن ظهور أولى المدن بنشوء العمران الحضري Urbanization ولعلنا لا نعدو الحقيقة ، إذا أكدنا القول أن الحضارة السومرية تفردت بأول ظهور لنظام دويلة المدن على أنه أول شكل من أشكال الحكم في التاريخ البشري فقد نمت فكرة المواطن والمواطنة والولاء الأعظم لدويلة المدن. صاحب، زهير، المشهد السومري، المورد، ع٣، بغداد/٢٠٠٧ ، ص٥٧-٥٨ .

(35) Lombard.M, The golden age of Islam. trans. by joan spenser (Netherlands 1975) , pp.118-119.

(36) Ibid.p.118.

(37) Arthure E.Smailes, The Geography of Towns, London ,1968, p.104.

(٣٨) رانسمين، ستيف، بغداد والقسطنطينية مركز الحضارة في العصور الوسطى، ترجمة: بشر يوسف فرنسيس ،

سومر، م١٢، ج١ و٢، بغداد/١٩٥٦م، ص١٠١ .

(٣٩) جونز، جيمس فلنكس، بغداد في سنة ١٨٥٣م ، ترجمة: عبد الوهاب الأمين ، المورد ، ع١٦، م٣، دار الحرية ، بغداد /١٩٧٤ ص٣٣ .

(٤٠) لسنز ، يعقوب، خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ، ترجمة: د. صالح

احمد العلي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد /١٩٨٤، ص٢٨٣ .

(41) Goitein: The Rise of the middle Eastern Bourgeoisie , in Islamic History and institutions, U.S.A, 1947 . P.218

(42) Lapidus: Middle Eastern Cities , Univ. of California press, Los Angelos. 1969,P.5.

(٤٣) ، الفن والعمارة، القسم الثاني/ص ٣٦٩

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) شولز، العمارة الإسلامية – عمارة التوحيد، ص ٨١

(٤٦) بولاديان، فيليب، الفضاءات الحضرية المفتوحة في المدينة العربية التقليدية،

بحوث الندوة الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة بغداد،

بغداد/١٩٨٩م، ٢٦٢/١